«عملهم البطولي» هذا لن تكون نتيجته سوى «التخلي عن النساء والأطفال، للعدو، بلا دفاع» وأن المسلمين سوف «يتجنبون قتلهم، ولكنهم سوف يجبرونهم على اعتناق الإسلام». وقد قدّر البطريرك نفسه أنه يوجد، في القدس «منذ استسلام الصليبيين في حطين، خمسون امرأة أو طفلاً، لكل رجل واحد»[64]. فهل كان البطريرك هرقل جاهلاً، حقيقة، لتعاليم الإسلام التي تمنع المسلمين من إكراه غير المسلمين، من أهل الكتاب، على اتباع دينهم؟

بعد هذا القتال العنيف قرر صلاح الدين أن يشن هجوماً حاسماً على العدو المتمركز على السور وفي التحصينات، مستغلاً غضب المسلمين لمقتل أحد أمرائهم «عز الدين عيسى بن مالك» من جهة، ونجاح النقابين في الوصول إلى السور والعمل لاختراقه من جهة أخرى، فكثف رمايات المجانيق، مغطياً تقدم المهاجمين بحجارتها، وبسيل من السهام والنبال يطلقها الرماة نحو المدافعين عن السور والحصون لكي تشل مقاومتهم، مما جعل أولئك المدافعين يتراجعون عن مراكزهم، بينما تقدم المسلمون واجتازوا الخندق الخارجي المحفور حول السور ثم التصقوا بالسور وعملوا به نقباً وتهديماً. واشتد قصف المجانيق وتوالى رمي السهام والنبال من الرماة المتقدمين خلف المهاجمين يحمونهم، ونجح المهاجمون في فتح ثغرات عديدة في السور الذي أوشك أن يصبح ملكاً للمهاجمين. وفي وقت ما من تاريخ 29 أيلول/ سبتمبر (1187)، استطاع المهاجمون فتح «ثغرة كبيرة» في السور نفذ منها المسلمون ورفعوا راياتهم عليه، إلا أن المدافعين ما لبثوا أن احتشدوا وردوا المسلمين عن السور[65]. ورغم ذلك، فقد أيقن المدافعون أن لا جدوى من دفاعهم، وأنهم مشرفون على الهلاك، بل إنهم هالكون حتماً إن هم استمروا في عنادهم، فاجتمع قادتهم وقرروا، بعد نقاش طويل، أن يطلبوا من صلاح الدين الأمان، وأن يفاوضوه على تسليم المدينة، وأرسلوا لهذا الغرض «جماعة من كبرائهم وأعيانهم»[66]. (انظر الخارطة رقم 4).

---

(64) Ibid., p. 811.

(65) رنسيمان، المرجع السابق، ص 74، وانظر: الحياري، المرجع السابق، ص 88 (عن العماد الأصفهاني).

(66) ابن الأثير، المصدر السابق، ج 11: 548، وأبو شامة، المرجع السابق، ج 2: 94.

General Organization of the Al-Aqsa Mosque